المحاضرة الثلاثون:الاتصال الثقافي.

الاتصال الثقافي

يطلق الاتصال الثقافي على الدراسات التي تنضوي تحت عنوان الدراسات الانتشارية إذ إنها تؤكد مبدأ واسعاً فرض نفسه عبر التاريخ الحضاري، إذ أن المجتمعات البشرية منذ أقدم الأزمنة اتصلت ببعضها وأخذت وأعطت فكرياً عبر هذا الاتصال. كما تؤكد بل تشدد هذه الدراسات على حقيقة معروفة هي أن العناصر الثقافية التي ابتكرت في إقليم ما لا تظل محصورة فيه بل غالباً ما تنتشر إلى الأقاليم بصورة شعاعية، أي في جميع الاتجاهات وإن دائرة انتشارها تتسع جغرافياً مع مرور الوقت حتى تصل مسافات بالغة البعد.

ينطلق أصحاب المدرسة الانتشارية التي ازدهرت في أواخر القرن التاسع عشر والنصف الأول من القرن العشرين في أوربا وأمريكا، ينطلقون من رأي مفاده أن أغلبية الناس لا تميل إلى الاختراع بل تفضل التقليد، بعكس المدرسة التطورية التي اعتقدت بالنقيض.

لقد اتخذ هذا التناقض بين المدرستين صيغة التضاد بين الاقتباس والاختراع الأول يمثل جوهر الفلسفة الانتشارية والثاني يمثل جوهر الفلسفة التطورية.

أن الصحيح في نظر المتخصصين الانثربولوجيين المعاصرين [هو أن حركة حضارات البشر اعتمدت على الاختراع والاقتباس في الوقت نفسه وبدرجات تفاوت فيها دور كل منها].

يعاني الاتجاه الانتشاري من هنات (ضعف) ملموسة ابرزها التبسيط الشديد لعملية الانتشار (انتشار الثقافات) أو بعض عناصرها، ويظهر الانتشار هذا كما لو كان آلياً لعدم تطرق الانتشاريين إلى العوائق النفسية والفكرية التي تتزامن مع الانتشار. فضلاً عن أن الاتجاه يوحي بالحتمية الجغرافية حينما يهتم بالأقاليم الثقافية إذ أنه مبدأ يرفضه الفكر الاجتماعي المعاصر. والمثلب الآخر في الاتجاه الانتشاري أنه ينحاز بدرجة أو بأخرى إلى إبراز العناصر الثقافية المادية أكثر من العناصر المعنوية، والأهم من ذلك أن مفهوم الأقاليم الثقافية يعجز عن تفسير الفروق الثقافية التي لا علاقة لها بالانتشار بل نتجت عن عوامل تاريخية واجتماعية مختلفة. وعلى الرغم من أهمية العوامل الجغرافية في خلق التشابه والاختلاف الثقافي، إلا أن هناك عوامل نفسية، ثقافية لا تطابق ضغوط البيئة الجغرافية التي يعتمد عليها المفكرون أصحاب الاتجاه الجغرافي المتعصب.

لعل من التطورات الحديثة التي تحققت في حيز الاتصال الثقافي ظهور الميدان العلمي للتثاقف a culturation، يقصد به التفاعل الثقافي المباشر الذي يجري بين المجتمعات التي تباينت ثقافاتها (تفاعل ثقافي مباشر ويستمر فقترة طويلة نسبياً). وما يتمخض عنه من آثار اجتماعية وثقافية ونفسية في واقع حياة الجماعات، أن مزايا التثاقف يكشف عن الحقائق الاجتماعية والنفسية المصاحبة للتفاعل الإنساني بأبعاده الإيجابية والسلبية.

في ضوء ما تقدم يمكن القول (أن مفهوم الاتصال الثقافي يتمحور في الاحتكاك الثقافي الواقع بين جماعتين ثقافيتين تختلفان في الأعراف والقيم، إذ يحدث تفاعل اجتماعي بين أفراد الجماعتين ولفترة طويلة نسبيا، وما ينجم عن

ذلك من تأثيرات مادية أو نفسية- اجتماعية- فكرية في سلوك أحدى الجماعتين أو كليهما.

وعلى ذلك أن مفهوم الاتصال الثقافي يختلف عن مفهوم الانتشار الكلاسيكي، فقد ابتغى الانثربولوجيون الانتشاريون معرفة انتقال العناصر الثقافية (الأفكار التكنولوجيا، المعلومات الجديدة) من مصادر ابتكارها إلى جماعات أخرى.

وكان مبتغاهم لإثبات عملية الاقتباس الثقافي ولدحض نظرية التطور من دون اهتمام منهم بعوامل التصادم وربما التصارع النفسي الاجتماعي الذي ينتج عن الانتشار عند الجماعات التي تأثرت به.

أن المبتغى الأقوى في دراسات الباحثين المعاصرين من دراسة التفاعل واحتكاك الجماعات الإنسانية، أنه لا يتسم بمعرفة العناصر الثقافية التي يجري تبادلها أو انتقالها من حيث أصل اختراعها او موقع اقتباسها. بل هو الانغماس والتعمق في طبيعة العلاقات التي تنشأ بين الجماعات المتفاعلة (المحتكة مع بعضها البعض) وما يتمخض عنها من تصارع أو تضامن أو عن تعايش مشوب بالخوف والريبة.

خلاصة القول أن الانثروبولوجيين المعاصرين يريدون من دراسة الاحتكاك الثقافي أو ما يمكن تسميته بالتثاقف -التحاضر- فهم أو استيعاب الصيرورة الثقافية والنفسية والاجتماعية على مستوى المؤسسات المادية التي يجري بينها الاحتكاك والتفاعل.